

سلسلة مدخل إلى الكتاب المقدس

سفر النبي إرميا



المطران سابا (إسبر)

٢٠١٩

*صورة الغلاف رسم طلال إسبير.

النبي إرمياء

تعريف

لأنه عارض التوجّه الدينيّ والقوميّ السائد في زمنه، وأنذر بدمار أورشليم وسقوطها، وهاجم المظاهر القومية والدينيّة الضيقة بوفاء منقطع النظير لكلمة الله، طالب موشه دايان وزير الحرب الإسرائيلي، في جلسة في الكنيست في العام 1967، بحذف سفره من كتاب الأنبياء، معتبراً إياه خائناً وجاسوساً.

وُلد النبي إرمياء حوالي 645 ق م، في قرية عناتوت الواقعة على مسافة خمسة كيلومترات إلى الشمال الشرقي من أورشليم. اسمه بالعبريّة "يرم - يهو" ويعني "الله يُعلي ويقيم". أتته الدعوة النبويّة في سنّ مبكرة (17 عاماً)، فتردّد لأنه شابّ ضعيف، لكنّ الله أكّد له أنّه سيكون قوّته، ولمس فمه ليضع كلمته عليه. كانت دعوته قاسية وصعبة جدّاً، أقامته في صراع داخليّ دائم. فقد حمّله الله "سلطة على الأمم وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتُهك، ولتنقض وتبني وتغرس" (10/1). قاسى اضطهاداً وسجناً وعزلة بسبب إبلاغ كلمة الله القاسية.

دامت خدمته النبويّة أربعين عاماً (626-587 ق م)، في زمنٍ عصيب من تاريخ المملكة الجنوبيّة. على غرار الأنبياء الذين سبقوه، أذاع إرمياء بأنّ يوم الربّ ليس يوم فرح

وانتصار، بل يومٌ مظلم وممرّ؛ يوم هلاك وغمّ. وخذ إرمياؤه ذاته برسالته (على غير المألوف في ذلك الزمان، لم يتزوج علامةً على الدمار الآتي)، وهذا يفسّر لماذا نعرف عن شخصيته أكثر ممّا نعرف عن أيّة شخصيّة أخرى من العهد القديم ما عدا داود.

كان إرمياؤه شديد العزم "مدينة حصينة، عموداً من حديد، وسوراً من نحاس" (18/1)، لكنّه كان حسّاساً كأّمّ مفجوعة بأولادها. لقد ارتبطت رسالته صميماً بمأساة أورشليم، وانغرس جرح شعبه عميقاً في قلبه، ما اضطره إلى مزج نبواته بصرخات الألم والحزن الآتيين من يوم الهلاك. "حزني لا شفاء له، فقلبي في صدري عليل ... حزنت واستولى عليّ الذهول، أمّا من بلسمٍ في جلعاد؟" (18/8-22)، ولذلك لُقّبهُ البعض تجنّياً بالنبيّ النائح.

كتاب إرمياؤه

تمّ تجميع نبوءات إرمياؤه بحسب الفترات الزمنيّة من خدمته: المبكرة فالوسطى فالمتأخّرة، وطبعاً بقدر الإمكان. فالأدب النبويّ أدب يختلط بالتاريخ بشكل كبير كما أنّه ليس أدباً موبّهاً على طريقتنا الحديثة، بل مجمّعاً بشكل مجموعات شعريّة أو نثريّة. ويمكن توزيع الكتاب كالتالي:

1. الفصول 1-25، وتتضمّن أحاديث نبويّة يتخلّلها بعض من روايات عن سيرة النبيّ. يتميّز هذا القسم بطابعه الشعريّ.

2. الفصول 26-45، روايات من السيرة الشخصية للنبيّ، تقطعها أحياناً عظات نبويّة يمكن تقسيمها إلى:

• نبوءات دينونة ورجاء (الفصول 26-35).

• "آلام" إرمياء (الفصول 36-45).

3. الفصول 46-51، وتتضمّن أحاديث ضد الأمم.

4. الفصل 52، ويحكي قصة سقوط أورشليم.

مقدّمة تاريخيّة

وقعت معركة كركميش في العام 605 ق.م وانتصر فيها البابليّون، بقيادة نبوخذ نصرّ على المصريين. وكان والد نبوخذ نصرّ قد هزم الآشوريين من قبل، فخلت ساحة الشرق للبابليّين ولم يبقَ أمامهم إلاّ مصر. وكانت حرب بين هذين الكبيرين سنة 601 ق.م على الحدود المصريّة. لم ينجح فيها أحد.

كانت الممالك الصغرى الواقعة بين الشمال البابليّ والجنوب المصريّ رازحة تحت تأثير تجاذب القوتين الكبيرتين (مصر وبابل)، ومنها مملكة يهوذا التي سقطت

في العام 587 ق.م، حينما فتح البابليّون أورشليم ودمروها، وأخذوا كنوز الهيكل بعدما أحرقوه.

عاش إرمياء في حقبة اضطراب كبير، عرفت خلاله مملكة يهوذا، كبقية الممالك الصغيرة، اضطراباً وتشويشاً كبيرين بين الالتجاء إلى مصر والاحتفاء بقوتها، كما رغب الملك والأمراء وجميع المتنفذين، وبين الاستسلام إلى بابل وقبولها، كما دعا إرمياء.

إصلاح تثنية الاشرع

كان ملك يهوذا، يوشيا، ملكاً صالحاً بحسب وصف كتاب الأخبار. بدأ بالإصلاح في السنة 629 ق.م مع نهضة وطنية، وحاول الامتداد عسكرياً نحو أراضي المملكة الشماليّة (إسرائيل) التي كانت قد أصبحت مقاطعة آشورية، مستفيداً من ضعف آشور، لكن اكتشاف كتاب ناموس الربّ (كتاب تثنية الاشرع) في هيكل أورشليم، العام 621، أسس لإصلاح ديني قام به الملك يوشيا. عندما تأكد الملك من صحّة الكتاب المكتشف مزق ثيابه، ودعا الشعب إلى الهيكل لتجديد عهدهم مع الله، بحسب وصايا الكتاب.

تبع تجديد العهد هذا حركة إصلاح. فطهر الهيكل من الأوثان، وألغيت العبادة في الأماكن العالية، وامتدّ الإصلاح إلى أراضي إسرائيل (المملكة الشماليّة) فهُدم معبد بيت إيل. ودعا يوشيا إلى تعيين فصح جديد في أورشليم لم يسبق له مثيل منذ الخروج (2مل23/22-23).

دور النبي إرمياء في الإصلاح

لا يتكلم النبي إرمياء عن الإصلاح أبداً، لكنّه كان يؤيِّده دون شكّ. إنّ صداقته ليوشيا الملك وعلاقاته الوديّة مع عائلة شافان كاتب الملك (24/26)، ومحبّته لروحانيّة تثنية الاشتراع، تُثبت أنّ موقفه كان إيجابياً تجاه حملة التطهير والإصلاح. ففي 13-1/11 نراه يجوب شوارع أورشليم داعياً إلى العهد. فقد طلب منه الله أن "أخبر بكلّ هذا الكلام في مدن يهوذا وشوارع أورشليم وقلّ: اسمعوا كلمات هذا العهد واعملوا بها، هذا العهد الذي أوصيتُ به آباءكم يوم أخرجتهم من أرض مصر..." (6/11).

ولكنّه كان مقتنعاً بأنّ الإصلاح الفعّال الحقيقي لا يُفرض بقوة الحديد، ولا يُنفَّذ بفرض مراسيم وشرائع؛ بل بإصلاح جذريّ يطال القلب. لقد دعا إرمياء إلى ختان القلب.

"وقال الرّب لرجال يهوذا وأورشليم:

افلحوا أرضكم غير المفلوحة

ولا تزرعوا بين الأشواك.

عاهدوا الرّب في قلوبكم يا رجال يهوذا

وسكّان أورشليم لنلا يخرج غضبي

كالنار لشرّ أعمالك،

فيحرق ولا من يطفئ". (4-3/4).

المرحلة الأولى (المبكرة) الممتدة من سنة 626 إلى سنة 609 ق.م

بدأ النبي إرمياء عمله، بحسب عنوان الكتاب، حوالي السنة 626 ق.م. وكان شاباً متأثراً بالنبي هوشع، إذ تكلم عن المحبة التي كانت عند إسرائيل في البرية، وهي عروسة لله في شهر عسلها. لكن الأمر تغير في ما بعد، إذ تركت العروس عريسها وزنت عليه. ويهوذا المملكة الجنوبية لم تتعلم من الدرس الذي لحق بأختها إسرائيل، المملكة الشماليّة، التي دمّرها الآشوريّون مع عاصمتها، عقاباً لها على خطاياها ولم يأبه شعبها لكلام الأنبياء، بل فاقتها في إثمها.

يُذهل إرمياء أمام هول التناقض الحاصل عند شعبه. فهو الشعب الذي إلهه الإله الحقّ الحيّ والقويّ، ومع ذلك يخونه ويركض إلى آلهة مزيفة فارغة أخرى متّبعاً باقي الأمم: "شعبي يرتكب شرّين: تركوني أنا ينبوع المياه الحية وحفروا لأنفسهم آباراً مشقّة لا تمسك الماء" (13/2). ترك إسرائيل الإله الحقيقيّ، وتبع عبادات الآلهة الفارغة، فهاجم النبيّ إرمياء الطقوس الدخيلة بمرارة:

"عليّ كلّ تلة عالية وتحت كلّ شجرة خضراء اضطجعت زانية في معبد البعل. أنا غرستك أجود كرمة، وزرعتك كلّك أفضل زرع، فكيف تحوّلت إلى كرمة تنكّرت لي" (21-20/2).

"أتسى الصبيّة حليتها والعروس جهازها؟ أمّا شعبي
فنسيني أياماً لا تُحصى" (32/2).

سيعاقب الربّ فساد يهوذا الفظيع، بمعاقبة المذنبين إن لم
يرتدعوا. أنذر إرمياء بالعقاب الآتي، لكنّه دعا إلى إصلاح
جزريّ حتّى لا يتمّ العقاب، لأنّ الأمل بالتوبة بقي متوقّداً فيه.

"ارفعوا رايةً نحو صهيون، اهربوا، لا تقفوا سأجلب شرّاً
من الشمال وويلاً شديد الهول ... وأجلب عليك أمة من بعيد
يا بيت إسرائيل، أمة قويّة عريقة، أمة لا تعرفون لغتها ولا
تفهمون ما تتكلّم به ... فيأكلون حصادكم وخبزكم، ويقتلون
بنيتكم وبناتكم، ويذبحون غنمكم وبقركم، ويتلفون كرمكم
وتينكم، ويدمّرون بالسيف مدنكم الحصينة التي أنتم
متوكلون عليها" (6/4؛ 18-15/5).

استمرّ صراع إرمياء مع دعوته طيلة حياته. يكمن
صراعه الداخلي هذا في أنّه مُلزم بإيصال كلمة الله، التي تعني
دمار شعبه، ولا أحد من الشعب يسمع له فإذا ما تكلم سيتكلّم
بالشرّ على شعبه ولن يرتدع هذا الشعب. وإذا صمت تحرقه
كلمة الله التي لا يستطيع الاحتفاظ بها لنفسه. أقامه هذا
الصراع في عذاب دائم.

في فترة انحراف عظيم عن الإيمان، ذكّر إرمياء بقوة
بالإيمان الموسويّ القديم وعهد البريّة بين الربّ وشعبه.

إحراق درج النبي

قُتل الملك يوشيا في معركة مجيدو في العام 609، واستلم ابنه يهوآحاز الحكم عدّة أشهر، ثم أقاله المصريون ووضعوا ابناً آخر له هو يهوآكيم، وكان أداةً في أيديهم. فرض يهوآكيم ضريبة باهظة على الشعب لصالح المصريين، ودام حكمه حتى العام 598، وكان مختلفاً عن أبيه. ففيما كان والده يوشيا صورةً عن داود، كان هو صورة عن سليمان. يصوّر إرمياؤ الفرق بينهما بحدّة في (19-13/22). كان يهوآكيم طاغية نموذجياً، قاسياً، أنانياً ومتعجباً. أخضع الشعب بالقوّة لبناء قصوره (13/22)، وعاش عيشة مترفة جداً (15/22)، فاضطهد الشعب وظلمه وسفك دماً بريئاً كثيراً (17-16/22)، وأذاق الذين عارضوه الموت ولم يكن يخاف لا الله ولا البشر. تعارض سلوك الملك مع تعليم الأنبياء الذي يقول بأن معرفة الربّ تتطلب العمل بالعدل.

بعد معركة كركميش رأى النبي إرمياؤ الوقت مناسباً لكي يدوّن أحاديثه المحفوظة في ذاكرته وذاكرة تلاميذه، فأملّى أحاديثه التي فاه بها خلال 23 سنة مضت على تلميذه باروخ، وأرسله إلى الهيكل لكي يقرأها على مسمع من الجميع.

تكلم إرمياؤ في كتابه هذا عن التهديد الآتي من الشمال، ولكن من البابليين هذه المرّة، ودعا الشعب إلى اليقظة والتنبّه إلى جدية الواقع الذي يتكلم عنه، وشجّع الجميع على إصلاح أمورهم تجاه الربّ. لكنّ إنذار إرمياؤ

هذا بثّ الذعر بين الحاضرين، ووصل الخبر إلى موظفي القصر الذين نصحوا باروخ وإرمياء بالاختباء، وأخذوا الكتاب (الدرج) من باروخ لكي يقرأوه للملك. كان ردّ فعل الملك المتكبر متوقعاً. فكان يقطع بسكينه كلّ مقطع من الدرج بعد قراءته ويلقيه في الكانون الذي يستدفئ به في قصره الشتوي. وهكذا أحرق الدرج بكامله.

عاد إرمياء فكتبه مرّة ثانية بتوسّع "فأخذ إرمياء صحيفة أخرى وأعطاهما لباروخ بن نيريا الكاتب، فكتب فيها على لسان إرمياء كلّ ما احتواه الكتاب الذي أحرقه يهواكيم بالنار، وزيد عليه كلام كثير مثله" (32/36).

الهيكل مغارة لصوص

وقف إرمياء على الحياد في بداية حكم يهواكيم: لم يكن مقتنعاً بفائدة إصلاح يوشيا تماماً، وكبت في قلبه حتى امتلأ "امتلت من غضب الربّ وأعياني أن أكبته في صدري" (11/6). ففاه بكلام علنيّ وشجاع في هيكل أورشليم في السنة الأولى من حكم يهواكيم (الفصل 7). إضافة إلى كونه طاغية، أحيا يهواكيم الوثنيّة التي حاول أبوه هدمها. والشعب الذي لم يدخل إصلاح يوشيا إلى قلبه عاد بحماسة إلى طرقه القديمة. حتى إنّ كلّ عضو في العائلة شارك في صنع كعكة الإلهة عشتار "البنون يلتقطون الحطب، والآباء يوقدون النار، والنساء يعجنّ الدقيق، ليصنعوا أقراصاً لملكة السماء" (18/7). كما

عادوا إلى ممارسة طقس تقديم الأولاد ذبائح للآلهة في وادي هنّوم جنوبي المدينة، ونُصبت أصنام الآلهة في الهيكل (31-30/7). ومع كلّ هذه الخطايا والجرائم كانوا يعتقدون بأنّ إله الهيكل يمحو خطاياهم إذا ما مارسوا طقس عبادته (10-8/7).

ملأت هذه السلوكيات إرمياء بالمرارة وهو ينظر الناس يدخلون الهيكل للعبادة. فبدأ رسالته بدعوة حادة: "أصلحوا طرقكم وأعمالكم" (5/7). واستعمل أداة الشرط "إن" ¹ (آيات 5-7) تماماً كما يفعل كتاب تثنية الاشتراع، ودعا إلى الوصايا العشر. تحدّى إرمياء فرضيّة لاهوت العهد الداووديّة التي تقول بدوام حضور الله في الهيكل. فالهيكل بنظره صار "مغارة لصوص" (11/7) بسبب أعمال الشعب المشينة. يقول إرمياء إنّ الهيكل ليس ضماناً للقول إنّ "الله بيننا"، وتالياً ما من أذى سيحدث لنا بسبب وجود الهيكل. لقد هدّد النبيّ بسقوط الهيكل وذهاب الشعب إلى المنفى كما حدث مع المملكة الشماليّة. "لا تتكلوا على قولكم: هيكل الربّ! هيكل الربّ! هيكل الربّ! فتخدعوا أنفسكم. بل بالأولى أصلحوا طرقكم وأعمالكم واقضوا بالعدل بين الواحد والآخر، ولا تجوروا على الغريب واليتيم والأرملة، ولا تسفكوا الدم البريء في هذا الموضع ولا تتبعوا آلهة أخرى لضرركم" (6-4/7). في حديث آخر يدين إرمياء ممارسة تقديم الذبائح. لم يأمرهم الله بتقديم ذبائح عندما خرجوا من مصر، بل طلب منهم

¹ "إن حفظتم وصاياي وسلكتم في رسومي أكون لكم إلهاً وتكونون لي شعباً".

القلب الأمين والطائع حتى يتحقق وعد الله: "اجمعوا
محرقاتكم إلى ذبائحكم واكلوا لحمها. فانا لم اكلم آباءكم
ولا امرتهم باية محرقة او ذبيحة يوم اخرجتهم من ارض
مصر وإنما امرتهم ان يسمعوا لي حين اكلّمهم فأكون لهم
إلهاً ويكونون لي شعباً" (21-23).

بحسب الفصل 26 خلقت عظة إرمياء ذعراً. لقد صدم
البعض من تجاهل إرمياء للاهوت العهد الملكي، بضمانته
الإلهية ودعمه للملك داود، وتأكيد الرب "يهوه" على
حضوره في هيكل اورشليم. لقد أسس إرمياء تعليمه هذا، مثل
غيره من الأنبياء على تقليد العهد المتجدد في الخروج
والمختبر في البرية. لقد سبقه النبي ميخا في نبوءة سقوط
الهيكل.

حماه أحيقام بن شافان، بنفوذه الأميري السياسي من
غضب الملك (24/26). لقد وقفت عائلة شافان إلى جانب
إرمياء في زمن الضيق والشدة.

لنذكر أنّ رسالة إرمياء كانت أن "يقلع ويهدم ويبني
ويغرس" (10/1). لم تكن دينونة الله الكلمة الأخيرة لأنه
أظهر اهتماماً بأن "يبني ويغرس". ولكن إعادة البناء تلي
الهدم حتماً. يقول الرب: "كلمتي كالنار وكالمطرقة التي
تحطم الصخر" (23/29).

بلسم جلعاد

لم يصدّق لا الملك ولا الشعب نبوءة إرمياء بخصوص يوم الربّ المهلك، بسبب ثقّتهم بقدرّة مصر على حمايتهم من التهديد الآتي من الشمال (2/18، 16؛ 36-37). ولذلك كان الأنبياء الكذبة ألدّ أعداء خصوم إرمياء وكانوا ينادون "سلام سلام حيث لا سلام ويداؤون جراح شعبي باستخفاف" بأدوية لا تلامس جذر المرض (6/13-15؛ 5/12-13، 30-31؛ 14/13-16؛ 23/9-40). اتّهمهم إرمياء بخداع الشعب وقال إنّهم يملأون الشعب آمالاً كاذبة، ويخدعون السامعين بالكاذيب، ويسرقون كلمات يهوه واحدهم من الآخر. وليس من شبه أبداً بينهم وبين أنبياء يهوه كما أنّ الشبه لا يوجد بين التبن والحنطة (23/28).

لأنّ كلمة يهوه لا تجلب سلاماً، بل سيفاً – سيفاً يقطع كمبضع الجراح ليستأصل الورم الخبيث ويحقّق شفاءً داخلياً، فإنّ دينونة الله بدءاً استعادة الصّحة، هذا هو الدواء عند إرمياء.

تألّم إرمياء من الشعب غير القابل للشفاء. وقال عنهم إنّهم "قلب ثائر متمرّد" (5/23). إنّ كلمات الأنبياء قد سقطت في آذان صمّاء، بدت لهم موضوعاً للسخرية (6/10). بالتدقيق في تعليم هوشع وإرمياء نجد أنّهما يركّزان على أنّ المشكلة تكمن في الداخل – في القلب. فإسرائيل "مريضة حتّى الموت" وتوهم نفسها بأساليب عديدة، مثل الثقة في المؤسسات: تابوت العهد (3/16)، طقس الختان

(4/4)، الناموس (8/8)، الذبائح (26-21/7)، الهيكل ذاته (4/7). فروابط جماعة العهد الاجتماعية تفككت. يقول إرمياء إنَّ كلَّ أخ هو يعقوب خادع للآخر (6-4/9). لا أحد موضع ثقة والظلم يجثم على الجميع كالهرم. كلَّ "يسهل على امرأة صاحبه" (8/5)، ولا يكثرثون للدفاع عن ضحايا المجتمع (28/5). والأنبياء الكذّابون نفخوا في القومية العمياء. وأخيراً وصل الشرّ إلى ذروته في ممارسة الوثنيّة لا في الهيكل فقط بل على كلِّ تلة وتحت كلِّ شجرة خضراء.

لكن هذه كانت الشرور الخارجية فقط، فالشرّ متأصل في القلب. يشير إرمياء، كأخصائيّ نفسانيّ معاصر، إلى أنّ القلب قد يخادع ويغشّ دوافعه الحقيقيّة:

"القلب أخدع الأشياء وأخبثها فمن يعرفه؟" (9/17).

ما من مكان بعيد ومخفيّ عن الله، إنّه الإله الذي يرى عن قرب وليس عن بعد (24-13/23). إنّه "يفحص الذهن ويجرّب القلب"، يعرف دوافع البشر الأعماق أكثر ممّا يفهمون هم أنفسهم (10/17). تنظر عينا الربّ الحقّ، ويكشف ما خبّاه الإنسان في الظلام (3/5). يجد الله، بدلاً من الحقّ الذي يطلبه العهد بينه وبين الشعب، يجد خداعاً داخليّاً، وزيفاً مزمناً في تاريخ إسرائيل الطويل في كنعان. ويصوّر الحال بقسوة قائلاً إذا فتش الإنسان راكضاً في شوارع أورشليم عن شخص عادل فلن يجده (3-1/5). ما من أحد يندم على شرّه بل كلّهم "كفرسٍ تندفع إلى ساحة القتال" (6/8). "القلق في الفضاء يعرف مواقيته واليمامة

والسنونوة المزقزقة تراعيان وقت مجيئهما. وأما شعبي فلا يعرفون أحكام الرب" (7/8). ولذلك يكتب الرب خطبتهم بقلم من حديد، برأس من ألماس على ألواح قلوبهم (1/17-4). لا يغير الشعب طرقه الشريرة المعتادة إلا إذا غير الأثيوبي جلده والنمر جلده المرقط (23/12). صارت الخطيئة "طبيعية" إلى درجة لا يستحون منها (12/8).

وصل الأمر إلى حدّ الكارثة. لقد حاول الربّ استعادة شعبه في الماضي. ولكي ينهضهم أرسل خدامه الأنبياء. وافتقد شعبه بالفواجع، لكي يعيد إليهم حسّهم. ولكن كلّ ذلك كان عبثاً. يشدّد إرمياء على أنّ انزلاق الشعب المستمر لغز محير عند الله، لأنّه من الطبيعيّ أن ينهض الإنسان بعد أن يسقط (7-4/8)، ومع ذلك رفض الشعب العودة (التوبة). في النهاية نفذ صبر الله. ملّ الله منه (6/15). فسيسكب سخطه على الشعب فيدمّر أوثانهم ويهزّ الأمة من أساساتها. فالله سيّد التاريخ.

تظهر سيادة الله على التاريخ بصورة مؤثرة حيّة عند إرمياء في صورة الفخاريّ (فصل 18). يرى إرمياء الفخاريّ جالساً إلى دولابه يصنع وعاء من الطين. ولما لم يصلح معه أتلفه وعاد فصنع من العجنة وعاء آخر. فإذا ما فسد الوعاء لسبب أو لآخر فإنّه يعيد صنعه وعاء آخر بما يناسب رؤية الفخاريّ. هكذا يصنع الله بإسرائيل. فإذا رفض الشعب أن يتقوّل كما يريد الله وأصرّ على اتّباع طرقه

الخاصّة، فإنّ الله سوف يوقف صلاحه عنهم ويفتقدهم بالدمار، ليصنع منهم شعباً جديداً.

لنلاحظ بأنّ الكارثة آتية نتيجةً للعناد البشريّ، وليس نتيجةً لغضب أو سخط الفخاريّ. مرّة أخرى يذكر إرمياء الشعب بأنّ المأساة الحاضرة ستكون عاقبة أفعالهم:

"طرقك وأعمالك جلبت عليك هذا كله

ذلك مصيرك وهو مرّ

ومراته بلغت إلى قلبك" (18/4).

ليس "غضب الله" تدخلاً إلهياً للعقاب بقدر ما هو انسحابه من شعب متمرّد تاركاً إياه أمام نتائج أعماله ومواقفه الشريرة المدمّرة. يتضمّن مفهوم سيادة الله، أيضاً، أنّ البشر لا يستطيعون العيش بأمان (من سوء العاقبة) عندما يخونونه، وأنّ العقاب هو "ثمرة مكائدهم" (19/6). لذلك في الفصل الذي يتكلّم فيه إرمياء عن سيادة الله كالفخاريّ، يرفق كلمته بطلبٍ طارئٍ من الشعب كي يصلح طريقه وأفعاله طالما هناك وقت. السيادة الإلهية لا تمحو المسؤولية البشرية.

الشرّ الآتي من الشمال

رأى إرمياء، خلال حكم يهوآكيم، أنّ دينونة الله تأخذ شكلاً سياسياً في تطورات عالميّة. ففي زمن دعوته عندما رأى القدر التي تغلي على فلسطين تكلم عن شرّ آتٍ من

الشمال. وبدءاً من معركة كركميش بدأ العدو الشمالي يتوضّح ويتقوّى. تحوي الفصول (1-18) قصائد عديدة تصف ما سوف يجري وأثره، وتطلب التوبة طالما بقي وقت لها

أنذر إرمياء، بلهجة طارئة ملحة، بخطر المعركة، وأهاب بالناس أن يهربوا إلى مدن حصينة طلباً للأمان (5/4-8). رأى الجيش يقترب بعربات تسابق الريح، وصرخ في أورشليم طالباً التوبة طالما هناك من وقت (5/13-18). يخفق قلبه بشدة لأنّ العدو سينتصر والنكبة ستحلّ فجأة على الأرض (5/19-22). يسمع صراخ موت أورشليم، كصراخ التي أصابها المخاض لكي تلد (4/29-31). بكى، كيسوع، على مصير أورشليم "حزني لا شفاء له فقلبي في صدري عليل. صوت استغاثة شعبي يُسمع من أرض بعيدة" (8/18-3/9).

ما من نبيّ آخر في العهد القديم وحّد ذاته مع شعبه كما فعل إرمياء.

في الفصل الرابع يصوّر في إحدى القصائد الخراب الآتي كما لو أنّ قنبلة نووية قد انفجرت ودمرت كلّ شيء وعادت الأرض "خربة خاوية" كما يصفها سفر التكوين في البدء.

"نظرت إلى الأرض، فهي خلاء،

وإلى السموات فلا نور فيها،

نظرت إلى الجبال فهي ترتجف،

وجميع التلال تترزعزع.

نظرت فما من إنسان،

وطيور السماء كلّها هربت.

ورأيت الجنائن صارت فقراً

وجميع المدائن أنقاضاً

من وجه الرب وحدة غضبه" (26-23/4).

علامات يوم الرب

رافق كلام إرمياء علامات، يصف الفصل 11-1/13
أحد أكثرها إيهاماً وغموضاً. يشتري إرمياء حزاماً من كتّان
ويخبئه في شقّ صخر في وادي الفارة. وعندما يرى بعد
زمان أنه قد تلف، يقول إنّ يهوه سوف يدمّر كبرياء الشعب
الذي يرفضه: "فكما أنّ الحزام يلتصق بوسط الإنسان، كذلك
ألصقتُ بي جميع بيت إسرائيل وجميع بيت يهوذا ليكونوا
لي شعباً واسماً وفخراً ومجداً، ولكنهم رفضوا أن يسمعوا"
(11/13).

مرّة أخرى يشتري إرمياء جرّة فخار ويكسرها في وادي
هنّوم (حيث يقدمون أولادهم ذبائح للآلهة الوثنيّة) لتنتثر
حطاماً وفتاتاً ويقول هكذا سيفعل الربّ بهم: "كما يتحطّم
وعاء الخزّاف الذي لا يمكن أن يُجبر من بعد، أحطّم هذا

الشعب وهذه المدينة" (10/8). عندما يعيد إرمياء هذا الكلام في دار الهيكل، يلقي الكاهن فشحور القبض عليه ويحبس رجليه في القيود (6-1/20).

بالرغم من لامبالاة الشعب، آمن إرمياء بأن كلمة يهوه كانت القوة التي تشكّل مجرى الحوادث. فيهوه "ساهر" على كلمته، حتى تتمّ.

أخيراً، حصلت معركة كركميش وانهزمت مصر أمام بابل وحصل ما كان إرمياء قد تنبأ به قبل 23 سنة، في الدرج الذي قرأه باروخ أمام الملك يهوآكيم، في السنة الرابعة من حكمه (13-1/25) "مضت ثلاث وعشرون سنة على كلمة الربّ التي أوحى بها إليّ، فكلمتكم بها مراراً وتكراراً فلم تسمعوا". لقد أعاد إرمياء كتابة نبوته التي أحرقها الملك وزاد عليها كلام كثير (32/36).

اعترافات إرمياء

نعود إلى التاريخ 609 ق.م، سنة موت يوشيا في معركة مجيدو وعظة إرمياء في الهيكل. اعتُبر إرمياء عدوّاً وخائناً للملك، فانسحب في تلك الفترة وعاش في الوحدة متخفياً. إلى تلك الفترة على الأرجح تعود اعترافاته (مراثيه). إنّها قصائد ليس لها مثيل عند أنبياء العهد القديم. ويمكن توزيعها كالتالي:

- 6/12-18/11 "كشاة سيق إلى الذبح"
- 21-10/15 "بثقل يدك عليّ أجلس".
- 18-14/17 "لا تكن لي يا ربّ رعباً".
- 23-18/18 "أيجازى الخير بالشرّ؟".
- 13-7/520 "أحسّست بنار محرقة
محبوسة داخل عظامي".
- 18-15/20 "ملعونّ اليوم الذي وُلدت
فيه".

يشكّل مقطع دعوة إرمياء (12-1/1) مفتاح فهم هذه المراثي، حيث نجد معاناة إرمياء الإنسان ودعوته النبويّة. فمناداته بقدرّ شعبه المأساويّ يسبّب لنفسه الحساسة ألماً لا يُوصف، كما يثير عداوة شعبه عليه. فالكلّ ضدّه لأنّ دينونة الله تقع على أرض يهوذا. ينذرّه الله بأنّ "الجميع سيحاربونك". لكنّه في وحدته يكتشف ملجأه الأعمق في الله أكثر من استحسان البشر "أنا معك، يقول يهوّه، لأنقذك".

إنسان خصام ونزاع

"ويل لي يا أمي لأنك ولدتني. في خصام ونزاع أنا. لا أقرض ولا أستقرض، وكلّ واحد يلعني. فلتكن اللعنة عليّ يا ربّ" (11/15). تصف هذه الكلمات صراع إرمياء الذي

عاشه طوال حياته. كانت كلفة دعوته النبوية عالية جداً فقد حُرّم من الزواج والعائلة والأولاد وعاش في وحدة رهيبة، وكانت يد الربّ ثقيلة عليه، والناس ضدهً لأنّه لا يكلمهم بما يرضيهم، وكلمة الربّ تحرقه إن لم يذعها. كان ممزقاً بين توفقه إلى عيش السلام والصدّاقة كالآخرين من جهة، وبين الدعوة النبوية التي تسيطر عليه وتأخذه إلى حلبة الصراع من جهة أخرى.

إنّ آلام إرمياء إنّما اشترك في آلام الله. صار همّ الله همّه بقدر عظيم، وكذلك مشاعر الله، سواء غضب أم محبّة، جرت من خلال كامل حياته وفكره.

في حكم صدقيا

تجنّب يهوآكيم مواجهة إندارات إرمياء لأنّ عرشه لم يبُدْ مهدّداً. فنبوخذنصر بعد معركة كركميش بفترة قصيرة عاد إلى بابل ليتسلّم مقاليد العرش. في العام 601 اجتاح جيشه فلسطين ووصل إلى حدود مصر. أيقظ هذا الغزو قصائد إرمياء بالويل الآتي من الشمال. لكن القائد البابلي اضطرّ إلى العودة إلى بابل بعد مواجهة المصريين، فأعطت هذه الفرصة ليهوآكيم ليعلن شبه استقلال في العام 600.

التين الصالح والتين الخبيث

لم يكن نبوخذنصر قادراً على العودة مباشرة إلى يهوذا، فأهاج الجيران لكي يُغيروا عليها ويُفسدوها. مات يهوآكيم خلال هذه الاضطرابات تاركاً ابنه، يهوآكين، ذا الثماني عشرة سنة كي يدافع عن ميراث أبيه الأحمق. يصف كاتب التنتية يهوآكين بأنه شرير كأبيه وسار سيرة أبيه في صنع الشر. لم يدم حكمه أكثر من ثلاثة أشهر وتالياً لم يكن بوسعه أن يفعل شيئاً. حرّك نبوخذنصر جيشه في العامين 597 و 598 وغزا يهوذا، ورحّل يهوآكين عن عرشه. وأخذ كنوز الهيكل وكذلك الملك الشابّ وأمّه أسرى إلى بابل. وبدأ فصل جديد من تاريخ يهوذا وبابل كما سنرى لاحقاً مع النبيّ حزقيال.

وضع نبوخذنصر ابن يوشيا الأصغر على عرش يهوذا وسمّاه صدقيّا. وقضى إرمياء بقيّة خدمته النبويّة معه في أورشليم. تعود الفصول 1-25 وخاصة 21-24 إلى زمن صدقيّا (587 - 597) وكذلك 26-45 معظم مواد ذكريات باروخ.

كان صدقيّا على عكس يهوآكين محبّاً للصالح ومعتدلاً لكنّه كان متأرجحاً وذا شخصية ضعيفة، يتأثر بسهولة بأراء من هم حوله. أعطى الوضع الجديد للملك أن يحكم بسياسة جديدة وكونه محبّاً للصالح أعطى إرمياء إمكانيّة الظهور في العلن لأنّ نبوءاته قد ثبتت التاريخ. التقى النبيّ بالملك سرّاً في مناسبات عديدة. لنلاحظ أنّ أحاديث إرمياء النبويّة ضدّ البيت

الملكيّ لم تشمل صدقيًا (6/23-1/22) بين الملوك الملعونين بسبب ظلمهم وعدم عدلهم. لا بل لعب إرمياء على الكلمات (صدقيًا تعني بالعبرية الله برّي) فتكلّم إرمياء على أنّ الملك المسيانيّ المستقبليّ سيكون له الاسم الملكيّ نفسه "الله برّي" (16/13)

لم يرَ إرمياء من أمل في شعب فقير إلى هذا الحدّ. كما أنّ الطبقة الحاكمة كانت ضعيفة جدًّا. رأى، في الفصل 24، رؤية قوامها سلّتي تين أمام الهيكل واحدة مليئة تيناً ناضجاً طيباً وتمثّل المنفيين الذين أخذهم نبوخذنصر إلى بابل. وبالمقابل سلّة أخرى مليئة تيناً خبيثاً لا يؤكل تمثّل صدقيًا ونبلاءه وبقية الشعب الباقي في الأرض. قال يهوه للنبيّ إنّهُ سوف يُخرجهم ويجعلهم رعباً لكلّ ممالك الأرض. في ما بعد أرسل إرمياء رسالة إلى المنفيين في بابل (فصل 29) نصحهم فيها أن يستقرّوا هناك ويبنوا بيوتاً وينشئوا عائلات ويصلّوا حتّى لخير العدو الذين يعيشون تحت ظلّه.

"اعملوا لخير المدينة التي سبيتكم إليها، وصلّوا من أجلها، ففي خيرها خيركم" (7/29).

على عكس الأنبياء الشعبيين الذين كانوا يَعدون بعودة سريعة إلى يهوذا، قال إرمياء إنّهُ على المنفيين أن ينتظروا في أرض غربتهم مدة طويلة حتّى "تتم لكم سبعون سنة في بابل" (10/29). لقد رأى إرمياء أمل إسرائيل في هؤلاء الأشخاص المنزوعين من أرضهم، وكما كتب في رسالته، إنّ

الربّ عنده مشروع لهم "أنا أعرف ما نويت لكم من خير لا من شرّ، فيكون لكم الغد الذي ترجون" (11/29).

حَبْكُ الثَّوْرَةِ

وقع صدقيّا تحت ضغط مُحرّج لكي يكسر العهد مع بابل. وكان النبلاء الجدد من مؤيدي مصر ورأوا في فرعونها الجديد، الذي أتى إلى عرشها بعد معركة كركميش بأربع سنوات، إمكانيةً سياسيّة لاستعادة التوازن إلى منطقة الشرق، والسماح ليهودا والأمم الصغيرة باستعادة استقلالها. اتّبعَت مصر خلال تلك الفترة سياستها القديمة بتهييج الممالك الصغيرة على التمرد. وقرع أنبياء يهوذا الكذبة طبول القوميّة، فلم يكن مستغرباً أن تعمل مصر، في السنة الرابعة من حكم صدقيّا، على تشجيع تشكيل حلف من المعارضين لبابل يتألّف من أدوم وموآب وآمون وفينيقية. أرسل الفرعون مندوبين إلى صدقيّا لكي يشترك في هذه الحركة. "وأرسل مثله إلى كلّ من ملوك أدوم وموآب وبني عمون وصور وصيدون وبأيدي الرسل القادمين إلى اورشليم إلى صدقيّا ملك يهوذا" (3/27).

لكن إرمياء، بلهجة مشابهة للهجة إشعياء قبل مائة سنة في الفترة الآشورية، أدان المؤامرة. وترافقت كلمته للمندوبين بالقيام بأية. فبأمر من الله، وبحسب رواية الفصل 27، صنع نيراً وجعله في عنقه ممثلاً نبوءته بخضوع هذه الأمم لبابل.

وبشّر المتآمرين بأنّ الله يهيّمن على شؤون التاريخ وسيطر عليها. ولأنّه صنع الأرض وكلّ ما فيها، فإنّه دفعها إلى سيطرة مؤقتة لمن يختاره هو. وأسرّ إرمياء بأنّ نبوخذنصر هو "خادم" يهوه (6/27-7)، ووكيل هدفه التاريخي. لذلك، فإنّ استخدام القوّة ضدّ بابل إنّما هو تمرّد ضدّ يهوه نفسه. وكانت رسالته إلى الملك المنفي صدقيّا وقادة الشعب الذين معه "اخدموه (نبوخذنصر) هو وشعبه فتحياوا. فلماذا تموتون أنت وشعبك؟" (12/27).

كانت هذه خطّة سياسيّة أحكم من خطط القادة اليهود القوميّين. لم ينظر إرمياء إلى الأمور نظرة سياسيّة عاديّة. لم يكن ممّن يريدون أن يروا بلدهم تحت هيمنة أجنبيّة، ولم يكن ممّن يعارضون الحرب من حيث المبدأ بل رأى الأزمة فعلاً لسيادة الله في التاريخ من أجل أن يهدم ويعيد البناء، من أجل أن يدين ويجدّد. ولذلك لم يكن الشعب أمام مواجهة خيار من سياستين: اتّباع مصر أو بابل، بل أمام قرار إيمانيّ يدعو إلى التوبة والثقة المطلقة بالله. كانت رسالة إرمياء غامضة أو مؤذية مسيئة لشعب يهوذا. لم تحمل معنى سياسيّاً، حتّى إنّ صدقيّا لم يفهمه أو أساء فهمه. فرسالته بخضوع يهوذا لبابل تنافت مع ادّعاءات الأنبياء الكذّبة باندحار نبوخذنصر وعودة كنوز الهيكل إلى أورشليم وكذلك الحياة الطبيعيّة إلى يهوذا سريعاً. هذا التفاؤل السهل قال إرمياء إنه مبنيّ على الكذب. فالأنبياء الشعبيّون لم يقفوا في "مجلس يهوه" لقد ملأوا الشعب

آمالاً باطلة: "إنهم يتكلمون بما يتراءى لهم، لا بما أقول أنا الرب" (32-9/23).

صدام إرمياء مع الأنبياء الكذبة

يرسم باروخ رواية حيوية عن الصدام بين إرمياء والأنبياء الكذبة المرتبطين بالقصر الملكي (فصل 28). ففي السنة التي ذهب فيها رسل إلى صدقيًا يطلبون منه الانضمام إلى الحركة المناهضة لبابل، تحدّى نبيّ اسمه حنانيا النبي إرمياء علناً في الهيكل. كان حنانيا مدافعاً عن لاهوت العهد الداووديّ، فأذاع بأنّ الربّ سوف يكسر نير ملك بابل، وخلال سنتين سيعود المسبيّون مع كنوز الهيكل بمن فيهم الملك. كان حنانيا وأنبيائه ما يزالون يؤمنون بأنّ يهواكين المنفيّ هو الملك الشرعيّ ليهودا، ووضعوا آمالهم بإحياء قوميّ عند عودته. أمّا جواب إرمياء المتهكّم فكان: "أمين ليفعل الربّ هكذا". وذكر حنانيا والشعب المجتمع، بأنّ شيئاً واحداً ميّز أنبياء الربّ: لقد تنبّأوا جميعاً بالهلاك.

"الأنبياء الذين كانوا قبلي وقبلك من قديم الزمان تنبأوا على أراضي كثيرة وممالك عظيمة بالحرب والشرّ والوباء" (8/28).

فأيّ نبيّ يخالف هذا التقليد ويتنبأ بالسلام يجب أن يتحمّل مسؤوليّة برهان صحّة ما ينادي به، ويجب أن تستند نبوءاته إلى الواقع التاريخيّ. بادر حنانيا إلى إرمياء وكسر نير

الخشب الذي في عنقه، كعلامة منه على كسر النير البابليّ، فكان جواب إرمياء:

"كسرتَ نيراً من خشبٍ لكنّي صنعتُ بدلاً منه نيراً من حديد. لأنّ هذا ما قال الربّ القدير إله إسرائيل. جعلتُ نيراً من حديد على أعناق جميع هذه الشعوب ليخدموا نبوخذنصر ملك بابل" (13-12/28).

حصار أورشليم

ربّما لم يسر صدقيّا في المؤامرة في العام 594، بتأثير من إرمياء، لكنّ الشغب تتابع ووصل إلى ذروته في العام 588، بوصول فرعون جديد إلى الحكم. بدأ الفرعون الجديد يجهّز حملة على آسيا. فأعطى أملاً للأمم الراضحة تحت الحكم البابليّ وبدأت الثورة من جديد وكانت مراكزها عمّون ويهوذا. توجّه نبوخذنصر لإخماد الثورة، ووضع قاداته في ربلّة (من أعمال حمص) على نهر العاصي، وحاصر أورشليم في العام 588. يصف كتاب المراثي في الفصلين 2و4 معاناة المحاصرين.

لم يتراجع إرمياء عن موقفه خلال الحصار، وبقي ثابتاً على أنّه يجب الاستسلام إلى البابليين، وهذه كانت نصيحته لصدقيّا عندما طلب مشورته بواسطة رسول (فصل 21). كان الملك يأمل بعجوبة من الربّ كما حصل عندما حاصر سنحاريب أورشليم في أيّام إشعياء النبيّ. لكن النبيّ إرمياء لم

يمنحه الأمل، بل قال: "إنَّ يهوه نفسه سيحارب ضدَّ المدينة"، "بيد ممدودة وساعد قويّ بغضبٍ وسخطٍ عظيمين"، فالمقاومة العسكريّة، تالياً، باطلة. لقد نصح مواطنيه بأن يخضعوا لبابل إن أرادوا أن يحفظوا حياتهم.

"وقال الربّ لإرمياء: "قل لهذا الشعب: سأجعل أمامكم طريق الحياة وطريق الموت. الذي يقيم في هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء، والذي يخرج ويلجأ إلى البابليين الذين يحاصرونكم يحيا وتكون له حياته مغنماً" (9-8/21).

حاول صدقيًا أن يسترضي الله فأمر بتطبيق إحدى وصايا تنبيّة الإشتراع، وهي تحرير العبيد العبرانيين. نُقِّد القرار الملكيّ، وعلى الأغلب ساهمت الرغبة بتخفيف عبء إطعام العبيد (زمن الحصار) في تنفيذه بسبب سوء الوضع الاقتصاديّ الشديد. لكن الحصار انفك جزئياً في ما بعد بسبب تقدّم المصريين فعاد الأغنياء واستعبدوا عبيدهم ثانية. بالنسبة لإرمياء كان هذا التصرّف برهاناً نهائياً على ارتداد الشعب عن العهد. ارتداد سيجلب دينونة الله لا محالة.

حبس إرمياء

بدا انسحاب البابليين بارقة أمل فأرسل صدقيًا إلى النبيّ رسولاً يطلب منه أن يصلّي إلى الله من أجل شعبه. لكن جواب إرمياء كان سلبياً مرّة أخرى. قال سيعود البابليون،

وإن بقي منهم رجالاً مجروحين فإنهم سيقومون ويدخلون المدينة. كان جوابه القشة التي قصمت ظهر البعير. بدأ إرمياة خطراً جداً لأنه يُضعف معنويات الشعب ويطلب مصلحة أعدائه (5-4/38). فقُبِض عليه وضُرب ووضع في السجن (15-11/37). والذريعة اتّهامه بعزمه على تسليم ذاته للبابليين.

كان الملك يحبّ إرمياة فحاول تخليصه أكثر من مرّة. ولكن إرمياة بقي على موقفه حتّى عندما استدعاه صدقيّا للمرّة الأخيرة (28-14/38) سرّاً. كانت نبوءة إرمياة مرّةً جداً على صدقيّا، ولكنها صدّقت بينما كذبت روايات الأنبياء الكذّبة جميعها. فقد دخل البابليون المدينة وأحرقوها، فهرب صدقيّا إلى غور الأردن فلحقوا به وساقوه إلى ربلّة، حيث قتلوا أولاده أمامه، وفاقأوا عينيه وقيّدوه بالسلاسل وأخذوه أسيراً إلى بابل. أمّا إرمياة الذي كان في السجن فأطلقوه حرّاً (فصل 39).

ما بعد يوم الهلاك

أدرك إرمياة منذ دعوته وتلقّيه كلمة الربّ مسؤوليته المزدوجة: دينونة وتجديد، إنذار ووعده. دعوته أن "يُهلك ويهدم" و "يبني ويغرس". أكثر عظاته كانت حول يوم الهلاك، لكنّه لم يهمل قطّ حقيقة قصد الله في أنّه لا يدمّر بقصد التدمير وليست غايته الهلاك. فهم إرمياة أنّ الأرض يجب أن

تُنظَّف كلياً من الأساسات المزيفة الكاذبة، لكي ينجيها الربّ ويغرسها مرّة ثانية: "أنظر إليهم بعطف وأعيدهم إلى هذه الأرض وأبنيتهم ولا أهدمهم، وأغرسهم ولا ألقهم" (56/24؛ 10/42؛ 4/45). إنّ ثباته على فكرة الشعب الجديد والعصر الجديد الذي يبدأ بعد الكارثة، بقيّ قوياً، على غرار الأنبياء الذين سبقوه، وهذا واضح جداً في الفصول (30-33) المعروفة بـ "كتاب التعزية".

إرمياء يشتري قطعة أرض

علامةً على البدء الجديد والعهد الجديد، وفيما كان إرمياء في السجن وأورشليم تحت الحصار والناس يموتون من الجوع وكلّ شيء أسودّ قاتماً وما من رجاء عند أحد، أتته كلمة الربّ بأن يشتري حقل قريبه في بلده عناتوت. وهذا ما فعله. كان امتلاك الأرض عنده علامة من الله على أنّ الشعب لن يبقى في بابل إلى الأبد، بل سيعود وسيمتلك أرضاً وحقولاً وبيوتاً، مرّة أخرى في الأرض. كان هذا قبلاً دعوة للمنفيين، لكنّه الآن، وبعد سقوط أورشليم، شمل الفقراء الذين بقوا في الأرض.

الجماعة الجديدة

سبر إرمياء غور الإيمان الشخصي أكثر من أيّ نبيّ آخر في العهد القديم أتى قبله أم بعده. عرف أنّه في أيام الشدّة،

عندما ينحلّ النظام الاجتماعيّ، يشعر الأشخاص باعتماد مطلق على الله. وهذا ما تعبّر عنه اعترافاته بشكل واضح. لكنّ إرمياء لم يهتمّ بالبعد الفرديّ المقطوع عن تقاليد الشعب، والمفصول عن جماعة العهد. فقد عرف، حتّى في عزلته، أنّ الأفراد يصلّون إلى الله ويختبرون "شفاءه" أو خلاصه ضمن الجماعة لذلك فهو عندما رفع عينيه إلى أفق مستقبل الله تكلم عن جماعة جديدة. ورأى إلى زوال الانشطار الأعرق الذي حدث في تاريخ الشعب، ألا وهو انقسام المملكة إلى شماليّة وجنوبيّة. وكما كانت الأسباط القديمة، زمن القضاة متحدّة كوندريالياً، هكذا سيصبح الشعب واحداً في أمانته للإله الواحد الذي افتداه (30-27/31).

ولذلك لا نستغرب وجود بعض الآيات الموجّهة إلى المملكة الشماليّة التي دمرها الآشوريون قبل مائة عام. يعطي إرمياء شعب المملكة الشماليّة هذا الوعد:

"وقال الربّ: في البريّة رحمتُ الشعب الذين نجوا من السيف، وحين طلب إسرائيل الأمان ظهرت له من بعيد.

أحببتُك يا عذراء إسرائيل، حبّاً أبديّاً، فأبقيتُ على رحمتي لك. أبنيك بعد فتُبنين، يا عذراء إسرائيل، وتحملين دفوفك بعد، وتبرزين في حلبة الراقصين. تغرسين بعدُ كروماً في جبال السامرة، والذين يغرسون يأكلون ثمر ما يغرسون. فسيأتي يوم

ينادي فيه النواطير في جبال إفرائيم، قوموا نصعد
إلى صهيون، إلى الربّ إلهنا" (6-2/31).

يُسمع نحيب راحيل جدّة إسرائيل الشماليّة على
أولادها ويطلب منها التوقف عن البكاء، لأنّ "في
غدك رجاء" (22-15/31).

"أفرائيم ابن عزيز عليّ، ولد يبهجني كثيراً مهما
تكلمت عليه شراً، أعود فأذكره بالخير، فأحشائي
تحنّ إليه. أقول أنا الربّ" (20/31).

يردّد هذا النصّ صدى كلمات النبيّ هوشع عن محبّة الله التي
لا تدع الشعب يزول (هو 8/11). وكما تنبأ هوشع بنهاية
المملكة الشماليّة، كذلك وقف إرمياء على حواف الهاوية التي
ستبتلع المملكة الجنوبيّة، مؤكّداً على أنّ محبّة الربّ، تعمل في
دينونته، لتخلق بداية جديدة لإسرائيل ويهوذا معاً. كان زمن
شدة عظيمة، قال إرمياء، ولكن سوف يخلص الشعب
منها (7/30).

العهد الجديد

يُعتبر النصّ (34-31/31) نصّ الإصلاح الجذري بلا
منازع. طبعت هذه النبوءة، دون جدال، التقليد النبويّ اللاحق
أكثر من أيّ شيء آخر قاله إرمياء. تتلألاً هذه النبوءة بنور
يتوهج من عدّة وجوه، كما تتوهج جوهرة مقتطعة من حجر
كريم.

لنلاحظ، أولاً أنّ هذا العهد الجديد، يقوم، مثل العهد القديم، على مبادرة الله وسلطته. وسيكون جواب إسرائيل استجابة لما يفعله الله، وليس مساومة ثنائيّة بين شريكين. وهذا هو معنى كلمة: "أجعل...".

لن يكون هذا العهد هشاً وشرطيّاً كالعهد الموسويّ. لقد أظهر تاريخ الشعب هشاشة العهد القديم بسبب عدم أمانة الشعب. لكن هذا التاريخ، كما تبين، سيصل إلى نهايته، لكي يُدشّن تاريخاً جديداً.

وستكمن جدّة العهد الجديد في أنّه سيحقّق الهدف الأصليّ لعهد سيناء القديم. لقد كُتِبَ العهد الأصليّ على ألواح حجريّة وُضعت في تابوت العهد، ووجد تعبيره في الطقوس الدينيّة. أمّا العهد الجديد فسيُكتَب على القلوب، المركز الداخلي للكيان، وسيجد تعبيره في استجابة شخصيّة لله. سوف يصل هذا المفهوم الداخليّ للشرعية إلى ملئه في العظة على الجبل (مت 5-7).

سوف يوجِد العهد الجديد جماعة جديدة، شعب الله، الذي "أكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً" (آية 33). وتفسّرهما الآية (31) بإقامة العهد مع "بيت إسرائيل وبيت يهوذا" – أيّ مع كلّ شعب الله الذي أخرجته الله من مصر. فعلاّمة معرفة الله تظهر في وحدة شعبه بكلّ أعضائه، بدءاً بالأصغر وصولاً إلى الأعظم.

سيقوم العهد الجديد على غفران إلهي يتضح بجلاء، في سياق رسالة إرمياء. فبعد أن يقصي الله الكبرياء والاكتفاء الذاتيّ البشريين ويدمر الأوثان التي وضع الشعب ثقته فيها، سيقف شعب الله بتواضع أمام إلهه، خجلاً من تاريخه الملطّخ، ونادماً على خيانتة للربّ، وتصير كلّ الأشياء جديدة "لأنّي سأغفر ذنوبهم ولن أذكر خطاياهم من بعد" (آية 34).

تحمل النبوءة بصيغة فعلها المستقبلي (ستأتي.. أجعل.. سأغفر..)، بعداً مفتوحاً على المستقبل، نرى فيه بعداً أخيراً أبدياً. مجيء الزمن الجديد لا يمكن أن يؤرّخ على الروزنامة، لأنّ زمن مجيئه يُقاس بفعل الله وتحقيق غايته. ومع أنّ فعل إرميا الرمزيّ بشرائه أرضاً، يعني إنّهُ سيتحقّق على الأرض، التي سيعود إليها المسيّون ثانية. إلا أنّنا سنرى، أنّ الزمن الجديد سيتتابع أكثر فأكثر في السنين التالية، إلى أن يصل إلى تحقيقه في المسيح "الوسيط لعهد جديد ينال فيه الموعودون الميراث الأبديّ الموعود" (عب 9/15)، المسيح الذي يدشنه ويفتحه على الأبدية، "هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي" (1كو 11/25؛ لو 22/20؛ عب 8/8-12).

وأخيراً، يلفت إرمياء، الآتي من خلفيّة كهنوتيّة، النظر إلى عدم إيلائه الهيكل مكاناً مركزياً في صورته التي يرسمها للعهد الجديد. لنذكر أنّ الهيكل انشقّ إلى نصفين ساعة صلب المسيح، الذي صار الكلّ في الكلّ (راجع عب 8-10).